البحث عن ملامح وجه أليف

مهدي عيسى الصقر

لم يكن يتوقع ما رأى. وقف يتأمل ما يجري أمامه مذهولاً. لم يشهدْ، من قبلُ، انفجاراً للعواطف البشرية على هذا النحو. وصل إلى المكان ـ في إحدى ضواحي العاصمة ـ قبل نحو نصف ساعة، متنقّلاً من حافلة إلى حافلة، يحمل صورة أبيه في جيبه. وجد حشداً كبيراً من النساء والرجال، بأعمار مختلفة، يتجمهرون عند بوّابة المستودع، يُغَطّون جانباً من الطريق، أصواتُهُم المتذمِّرة تتردد في الهواء، وشمسُ تموز اللاهبة تصفع رؤوسهم ووجوههم بضراوة. الساحة الواسعة، في الداخل، وراء السياج السِّلْكيّ الطويل، مقفرة تماماً. عيون المنتظرين عند البوّابة تحدِّق في صفٍّ من الحجرات الواطئة، أبوابُها ونوافذُها مربّعاتٌ سود صغيرة، في الطرف البعيد من الساحة. رجلان، أو ثلاثة، يتحركون في ظلال تلك الحجرات.

يقف عند حافة الحشد. يُخرج صورة أبيه من جيبه. يتأملها بإمعان. الملامح في الوجه الشاب الوسيم محفورة في رأسه، منذ بدأ يعي الأشياء من حوله. نُسَخٌ من هذه الصورة ـ ولكنْ بحجم أكبر ـ مؤطَّرةٌ، ومعلَّقةٌ على الجدار في كلّ حجرةٍ من حجرات البيت. أمه، وفيما بعد جدته، حرصتا على أن تبقى ملامحُ وجه أبيه في ذهنه، برغم جريان السنين. أتراه يعثر عليه اليوم بين العائدين!؟

يسمع مَنْ يصيح فرحاً: «إنهم يُخرجونهم الآن!»

يحدث هياجٌ وتدافُعٌ عند المدخل. أصوات تضجّ مطالِبةً بالدخول. يلمح هياكل مجموعةٍ من الرجال تخرج من فتحات الأبواب السود للحجرات البعيدة، وتنتظم، بعد ذلك، في صفوف طويلة، في ظلال الغرف. يتزايد هياجُ المحتشدين، يُلْقون بأجسادهم على حديد البوّابة، يحاولون كسرها. يسمع صريرَ مفاصل البوابة ترتجّ تحت ضغط كتلة الأجساد المتراصّة وهي تحاول الدخول عنوةً. عندئذ ينفصل رجلان عن الظلال البعيدة، يتقدمان صوب الجمهور، هيكلين صغيرين، تستعجلهما الأصواتُ النافدةُ الصَّبرِ، وترقبهما العيونُ يمشيان متمهّلَيْن ـ لا يحملان سلاحاً ـ الواحد وراء الآخر، عبر امتداد الفناء الشاسع المشمس. يفتح الرجلان البوابة أخيراً فتكتسحهما موجةٌ عاتيةٌ من هياكل الرجال والنساء، في اندفاع لا يردعه شيء. يتأمل الرؤوس والظهور تتخاطف مسرعة. يمشي وراءها إلى الداخل. في تلك اللحظة تنفرط الصفوف أمام الحجرات، وينفلت العائدون يلتقون ذويهم. ولدقيقتين، أو ثلاث، يشاهد، مِنْ مكانه هو، مجموعةً عريضة من الهياكل تنتشر في الفناء، وتركض مندفعةً إلى الأمام تلاحقها ظلالُها. اللابسات العباءة من النساء يتشبَّثْنَ بعباءاتهنّ تخفق في الريح، ولابسو الكوفية من الرجال يضع كلٌّ واحد منهم كفاً على رأسه لكي لا يأخذ الهواءُ كوفيّته، وهو يعدو بين الآخرين. ومن الجهة الأخرى، من ناحية الحجرات البعيدة، يرى صفوفاً من الرؤوس البيض، والوجوهِ المبهمةِ الملامح، والصدور تتقدم كتلة واحدة. الهياكل المقبلة تتعثر، تسقط وتنهض، ويزاحم بعضُها البعضَ. أقدام الفريقين المتعجلة تضرب الأرض، والهواء يردِّد وقع الخطى، يخالطه شهيقٌ ولهاثٌ ونداءات. في منتصف الساحة تقريباً، في مكان أقرب إلى صف الحجرات ـ فالمستقبِلون يركضون بنشاط أكبر ـ، تلتحم المجموعتان وتتداخلان. مئات الهياكل تتحرك بعشوائية، وسط ضجيج أصوات تتنادى بأسماء رجال وأسماء نساء. العيون تحدِّث، تتفرَّس في الوجوه، تفتش عن ملامح مألوفة. الأجسام تتدافع، تنتقل من مكان إلى مكان.

يحشر نفسه بين الهياكل الضاجة المتلاطمة، صورةُ أبيه في يده. يحدِّق في وجوه العائدين تتحرك ذاهلةً هنا وهناك؛ وجوه متغضنة، ناتئة العظام وشاحبة؛ وجوه مريضة يعلوها شعرٌ أبيض، أو بلون الرماد؛ ولا واحد من هؤلاء ملامحُ وجهه تشابه خطوطَ الوجه الشاب الوسيم في الصورة التي يحملها معه. يظلّ حائراً تدفعه الهياكل، من جانب إلى جانب، وهو يحمل وجه أبيه. الصورة بين أصابعه توشك أن تتمزق. ينسلّ خارجاً من وسط الأجساد التي لا تستقر. يقف عند حافة الحشد المائج يرقب ما يجري أمامه.

امرأة تكتشف وجه زوجها العائد، وهي ما تزال بعيدة عنه، فتصرخ باسمه في فرح مجنون. يلتفت إليها زوجها. يشق الواحد منهما طريقَه نحو الآخر، يَدْفعان الهياكل التي تسدّ عليهما الطريق. واحد من العائدين يلمح وجوه بعض أفراد عائلته، يصيح فوق الضجيج «أنا هنا! أنا هنا!». الجماعتان المتداخلتان تنتظمان أخيراً، في حلقات صغيرة، كلٌّ حلقة تحيط بواحد من العائدين.

يرى بعد ذلك، مشاهدَ تبدو له غريبة: عجوزاً بفم خالٍ من الأسنان تدور حول نفسها في رقصة مجنونة؛ امرأةً تطلق ضحكات هستيرية، وهي متعلِّقةٌ بذراع رجل شارد الذهن لا يقول شيئاً؛ نساءً يزغردن فرحاتٍ وعيونُهنّ تهمي؛ كتلاً

متشابكة من أجساد الرجال والنساء - والأطفال محشورون بينهم - تختلج، ويندّ عنها نشيجٌ مكتوم وتمتماتٌ غير مفهومة؛ رجلاً يحاول أن يجعل ابنته الصبية بين ذراعيه، فيعجز عن حملها ويسقطان على الأرض يضحكان؛ امرأةً ورجلاً متعانقيْن يتدحرجان على الأرض، غير مكترثيْن للأرجل تدوسهما؛ امرأةً تنهار بين ذراعَيْ زوجها العائد، والرجل يرنو اليها حائراً.

نشيج، زغاريد، دموع، ضحكات مرحة. ثم يتحرك المستقبِلون والعائدون، في مجموعات صغيرة، يمرون عبر البوّابة، ويفارقون المكان، هم وضجيجهم، ويحلّ السكون. الساحةُ مقفرة الآن تقريباً، وصامتة. لا يتبقى في الفناء الواسع غيرُ سبعة رجال، متروكين وحدهم في الشمس. واحد منهم يحرك يده في الهواء يصطاد ذباباً وحشرات وهميةً يضعها في فمه، وآخر يضحك مع نفسه. الخمسة الباقون يقفون في صمت، متقاربين، على وجوههم علائم الشعور بالحيرة والضياع، عيونهم شاخصة نحو البوابة.

يخشى الاقتراب من صائد الحشرات، ومن الرجلِ الذي يضحك مع نفسه. يدنو من الآخرين. الوجوه ذاتها تقريباً؛ شعور بيض، وتجاعيد، وعظام. لكنّ جدته أكدتْ له أنّ اسم أبيه مذكور بين أسماء العائدين. «لو كنتُ أستطيع لجئتُ أنا معك». «وكيف يعرفني!؟» تمد يدها له بصورة صغيرة، متهرئةٍ قليلاً، تحتفظ بها تحت وسادتها: «سوف يتعرف عليك حين يراك تحملها». وبرغم يقينه من أنّ أباه لا يمكن أن يكون واحداً من هؤلاء الرجال ذوي الملامح الغريبة، والهياكل المحطمة، فإنّه يحمل الصورة بين يديه، ويخطو أمامهم. لا أحد منهم يلتفت إليه، عيونهم تظل شاخصة من فوق رأسه، نحو البوابة، ووجوه المارة في الطريق. الرجال الخمسة يتشاورون فيما بينهم. بعد ذلك يتحركون باتجاه المدخل.

صائد الحشرات، والرجل الذي لا يتوقف عن الضحك، لا يغادران مكانهما. يمشي وراء الخمسة ليعود إلى جدته، يعذِّبه الشعورُ بالخيبة، والصورةُ ما تزال في يده. أحد الرجال ينتبه إلى خطواته تتبعهم فيلتفت إليه، يستدير، يحدِّق في الصورة، ويعود مسرعاً، يمسك به من ذراعيه بقوة:

«لقد كبرتَ يا ولد!»

ثمّ يرنو إلى الوجه المتغضّن الماثل أمامه في ارتياب وهو يسأل: «ولكن لماذا لم تأت هي معك!؟»

- «ماتت».

يغمض الكهلُ عينيه، تسقط ذراعاه، يداه الشاردتان تبحثان عن شيء في جيوبه. يُخْرجهما بعد قليل خاليتين. يرنو إلى الرجل المصاب بنوبة ضحك لا تنتهي. الرجل الآن يشهق ويتلوّى. يعود بوجهه إليه. يلوح عليه الشرود.

- «لنذهبْ».

يظل هو متردداً، يمدّ الرجلُ يدّه الناحلة ويُمسك بكفه:

- «سوف تخبرني بكل شيء ونحن في الطريق».

ينقل نظراته بين الوجه الوسيم الفتي في الصورة، وملامح وجه الكهل المليء بالغضون، يكلِّمه، ثم يحشر الصورة - التي تهرأتْ - في جيبه. ما يزال حائراً، لا يدري كيف انقلب الوجه هكذا. إلا أنه يغالب تردده، ويمضي معه، تاركَيْنِ الرجلَ المهووس بالضحك، وصائدَ الحشرات، يقفان وحدهما في الشمس، وسط الساحة. الكهول الأربعة الآخرون - ممن تبقى في المستودع من الرجال العائدين من الأسر - يقفون الآن عند المدخل، لا يغادرون أماكنهم، عيونُهم تتفحص وجوه المارة.

بغداد

وجوه في المرآة

خليفة قرطي

لم ينتبه السيد حسين خوجة عندما نهض من فراشه في ذلك الصباح إلى الأمر. فقد نزل من سريره وانتعل، ثم خرج من الغرفة مغمضَ العينين، واتّجه إلى المرحاض وهو يقاوم نعاسه. وبعد هنيهة وجد نفسه في الحمام يمدّ يده اليمنى إلى حنفية الماء البارد يفتحها، واليسرى إلى قطعة الصابون المعطّر. دَلَك يديه ثم غمر وجهه بالماء البارد عدة مرات، وتلمّس المنشفة عن يمينه ثم مرّرها على وجهه ويديه، وفتح عينيه على المرآة أمامه... فإذا صورة عبّاس البوّاب تبدو أمامه، بوجهه العريض المنتوء وشاربه الكثّ وشعره الرمادي. حرّك رأسه بعنف وبسمل، ثم التفت يميناً، وعاد ينظر إلى المرآة شيئاً فشيئاً. كانت صورة عباس البوّاب تملأ المرآة. مدّ يده نحوها فلاحتْ في المرآة يدُ عبّاس الغليظة ذات الأظافر الصلبة التي تُخفي تحتها سواداً، وعهدُهُ هو بيده بيضاءَ نقيةً. ترك المنشفة تنزلق من يده اليسرى وحاول أن يغطّي وجهه براحتيه فأحسّ بخشونة ملمسهما وكثافة الشارب تحتهما، وعهدُهُ بنفسه حليقاً دائماً وبلا شارب. خمّن أنْ لا بد أنّ ذلك من آثار النعاس عليه، وأنه سوف يزول ما دام الأمر غير معقول.

أمس، في الرابعة من بعد الظهر، كان عبّاس البواب قد طرق باب مديره السيد حسين خوجة ثم دخل دون أن يسمع الإذن بالدخول، ففوجئ بمديره يسوّي سرواله غيرَ بعيدٍ عنِ السكرتيرة الجديدة التي كانت ممدَّدةً فوق الأريكة يسارَ المكتب وقد رفعتْ إحدى ساقيها فوق المتكإ الخشبي مما يلي الكتبَ وتدلَّتِ الساقُ الأخرى على طرف الأريكة حتى كادت أن تلامس الأرض.